



معاهدة زاما بداية لنهاية قرطاجة 201 – 146 ق.م

The Treaty of Zama beginning to the end of Carthage
BC 146-201

أحمد سايج مرزوق (*)

مخبر المؤسسات الجزائرية عبر التاريخ و دورها في التنمية الوطنية

جامعة خميس مليانة، الجزائر

a.saiah-merzouk@univ-dbkkm.dz

د. نورالدين شعباني

جامعة خميس مليانة، الجزائر

nourchabani@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2019/06/05

تاريخ الإيداع: 2019/05/05

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى عرض موجز للحرب الرومانية-القرطاجية الثانية أو ما اصطلح عليه من طرف المؤرخين بالحرب البونية الثانية التي انتهت بمعركة زاما الفاصلة 202 ق.م والتي تمخض عنها هزيمة قرطاجة. أعقب هزيمة زاما توقيع اتفاقية بين روما وقرطاجة تمثلت في معاهدة زاما 201 ق.م والتي كان لها انعكاسات على الجانبين خاصة الطرف القرطاجي، بحيث أن هذه المعاهدة كانت البداية لتراجع قوتها دوليا واقليميا فتحطيمها نهائيا عام 146 ق.م.

الكلمات الدالة:

قرطاجة ، روما ، تيتوس ليفيوس ، بولبيوس ، نوميديا ، زاما ، ماسينيسا ، حنبعل.

Abstract:

This study aims to present a summary of the Second Roman-Carthaginian war, or what was called the Second punic war, which ended by the battle of Zama, which resulted in the defeat of Carthage.

Zama's defeat was followed by the signing of an agreement between Rome and Carthage, which was the Treaty of Zama 201 BC, which had repercussions on both sides, especially Carthage so that this treaty was the beginning of the decline of its internationally and regionally power , and then finally destroyed in 146 BC.

Key Words:

Ethics , Virtues, Politics , Governance, Evil Natures

(*) المؤلف المرسل : أحمد سايج مرزوق : a.saiah-merzouk@univ-dbkkm.dz



يعتبر حصار حنبعل لمدينة ساغنتوم وتحطيمها عام 218 ق.م باسبانيا السبب المباشر لإعلان روما الحرب الثانية ضد قرطاجة، والتي أشعلت في ثلاث جهات (إيطاليا، اسبانيا، شمال إفريقيا) طول مدة ستة عشر سنة وانتهت بمعركة زاما وانهزام قرطاجة. أرغمت قرطاجة المهزومة على توقيع معاهدة زاما 201 ق.م التي قيدتها سياسيا وعسكريا واقتصاديا، فكانت بذلك البداية لتراجع القوة الاقتصادية والعسكرية لقرطاجة وهو ما دفع بروما إلى التحجج بأن غريمها قرطاجة قد نقضت أحد بنود المعاهدة سنة 149 ق.م، فأعلنت عليها الحرب الثالثة التي نتج عنها تحطيم قرطاجة نهائيا عام 146 ق.م. لكن الإشكال الذي تحاول هذه الدراسة الاجابة عليه فهو: كيف ساهمت معاهدة زاما في تحطيم قرطاجة نهائيا عام 146 ق.م؟

1- الحرب الرومانية-القرطاجية الثانية 202-218 ق.م (اسبابها وأهم حثياتها):

بانتها الحرب البونيقية الأولى عام 246 ق.م وخسارة قرطاجة لصقلية وسردينيا وكورسيكا وجهت هذه الأخيرة أنظارها باتجاه اسبانيا لاستعادة قوتها، وتداول على السلطة القرطاجية هناك كل من هاميلكار ثم صهره هسدروبعل وأخيرا حنبعل ابن هاميلكار الذي سيكون طرفا فاعلا في الحرب الثانية. لما اعتلى حنبعل قيادة الجيش في اسبانيا عام 221 ق.م أصبح يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض على روما وإتمام مشروع والده، وتم له ذلك بعد محاصرته مدينة (ساغونته)¹ وتدميرها عام 218 ق.م²، وكان هذا السبب المباشر لإعلان روما الحرب ضد قرطاجة بداعي حماية حلفائها في ساغونته³. وحسب معاهدة (الإيبيرو)⁴ فإن هذا الإدعاء كان باطلا خاصة وأن المدينة تقع جنوب نهر الإيبيرو ولا حق للرومان فيها، فكان بذلك الحرب بعد سلام دام اثنان وعشرون عاما.

لما أتم حنبعل استعداداته العسكرية واللوجيستية قرر مهاجمة روما برا، فاجتاز نهر الإيبيرو على رأس جيش قوامه تسعون ألف (90.000) مشاة واثنا عشر ألف (12000) فارس وسبعة وثلاثون فيلا⁵، ثم اجتاز جبال البيريني ليواصل تقدمه فاجتاز بصعوبة جبال الألب عن طريق فج سان برنار الأصغر حاليا⁶، ويذكر بوليبوس أن حنبعل تكبد خسائر فادحة خلال عبوره لجبال الألب بسبب الهجمات التي شنّها عليه سكان الألب فضلا عن العواقر الطبيعية⁷. وبهذا الاجتياز البطولي تبدأ مواجهات هذه الحرب التي شملت ثلاث جهات هي إيطاليا، إسبانيا، شمال إفريقيا (أنظر الخريطة رقم 01)



لما وصل حنبعل إلى إيطاليا فرض على الرومان عدة انتصارات منها ما تحقق في معركة تسين (Tessin) 218 ق.م التي اعتبرها حنبعل كمناوشات فقط، ولكن بوليب يعتبره انتصارا كبيرا لقرطاجة وهزيمة للرومان⁸. أما ثاني انتصار لحنبعل فقد كان في معركة تريبيه (Trébie) ديسمبر 218 ق.م جنوب نهر البو على الضفة اليسرى لتربي بين سارتينارو و كزاليجيو⁹، ولم ينج من هذه المعركة سوى العشرات من قوات القنصل الروماني سمبرونيوس المقدرة بأربعين ألف جندي، بينما قدرت خسائر حنبعل بأعداد قليلة على ما يذكره بوليب¹⁰.

وتعتبر معركة كاناي أوت 216 ق.م أهم انتصار لحنبعل رغم تمكن الرومان من تجهيز جيش يقارب ثمانين ألف رجل¹¹ ويفسر فرنسوا ديكريه (Decret F.) سبب انهزام الرومان فيها بالاختلاف في تسيير المعركة بين قيادتي الجيشين الرومانيين¹². ولعب سلاح الفرسان في جيش حنبعل دورا حاسما في تحقيق الانتصار، كما فقد هذا الأخير من قواته خمسة آلاف وسبع مائة رجل، بينما قدرت خسائر الرومان بخمسة وأربعين ألف رجل من بينهم القنصل إيميليوس والعديد من القادة فضلا عن وقوع عشرين ألف آخرين في الأسر، وبالتالي لم ينج من المعركة سوى خمسة عشر ألف رجل فقط¹³. وبعد هذه الانتصارات بدأ حنبعل في التراجع رغم عقده لتحالف مع الملك فيليب المقدوني عام 215 ق.م القاضي بالتعاون المشترك ضد روما، لكن هذه الأخيرة قضت على هذا التحالف وتركت حنبعل وحيدا في مواجهة القوة الرومانية الصاعدة¹⁴، وفي ظل تقاعس مجلس شيوخ بلاده في تقديم يد المساعدة.

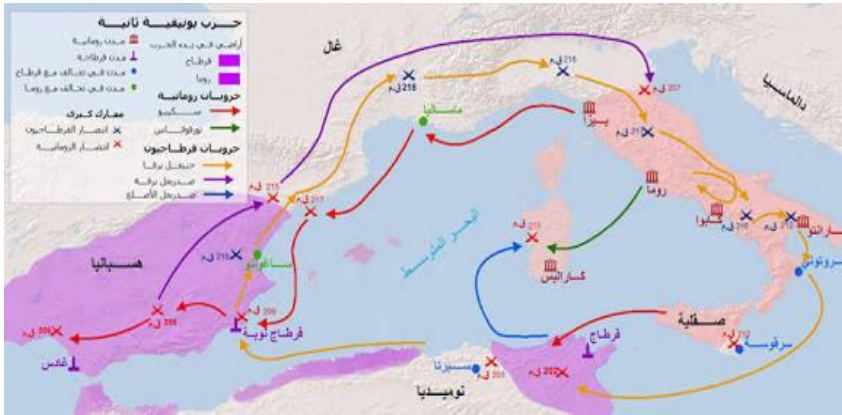
حققت القوات الرومانية انتصارات كبيرة على القوات القرطاجية في الجهة الإسبانية للحرب، وتم السيطرة على المناطق الخاضعة لقرطاجة بقيادة سكيبيون¹⁵ الذي حرم حنبعل من الإمدادات التي طالما انتظرها¹⁶ وأهم انتصارات القائد الروماني ضد هسدروبعل معركتي ميتور وقرطاجنة والتي أنهت الوجود القرطاجي في إسبانيا نهائيا¹⁷. وعلى إثر كل هذه الأحداث في كل من إيطاليا وإسبانيا بدأت قرطاجة في تراجع قوتها فضلا عن فقدان نفوذها في الحوض الغربي للمتوسط، بفقدانها لإسبانيا نهائيا، وبالتالي فإن نفوذها انحسر في أراضيها الضيقة في شمال إفريقيا.

وفي شمال إفريقيا انهزمت قرطاجة بداية في معركة السهول الكبرى 203 ق.م وهو ما دفع قرطاجة مرغمة على استدعاء قائديها من إيطاليا وهما ماغون أولا والذي وافته المنية قبل وصوله متأثرا بجراحه، ثم حنبعل الذي أنزل في هدروماتوم (سوسة) في خريف 203 ق.م¹⁹،



وخاض آخر معاركه المتمثلة في معركة زاما الفاصلة 202 ق.م والتي أبدى فيها شجاعة منقطعة النظير وعمل على الدفاع عن قرطاجة لكنه انهزم أمام جيش روما بقيادة سكيبيون الملقب بالإفريقي²⁰. وبذلك تنتهي فصول هذه الحرب الطويلة مخلفة خسائر كبيرة للجانبين ولعل الحصيلة كانت أثقل للقرطاجيين ومازاد من ثقلها توقيع معاهدة زاما المخزية.

الخريطة رقم 01: خريطة لأطوار وجهات الحرب الرومانية-القرطاجية الثانية 218-212 ق.م.



المراجع: الأطلس التاريخي للبحر المتوسط explorethemed.com

2- بنود معاهدة زاما 201 ق.م:

أرسل سكيبيون إلى روما بوليبيوس لنتولوس (Poblius Lentulus) بعد انتصاره في معركة زاما ليحمل أخبار النصر، بينما عاد هو إلى تونس التي أقام بها معسكره²¹، وفي هذه الأثناء وصلت سفينة قرطاجية عليها أغصان الزيتون التي ترمز إلى السلام وعلى متنها ثلاثون عضواً من كبار القوم يشكلون وفد أرسل خصيصاً من أجل طلب السلم وإنهاء هذه الحرب²²، فقام سكيبيون باستقبال الوفد بطريقة استفزازية نظراً لضعف قرطاجة بألفاظ نابية وحملهم سبب الحرب كما نعتهم بناقضي العهود²³. نستنتج من هذه المعاملة المشينة رغبة سكيبيون في وضع قرطاجة في موقف ضعف وبالتالي يمكنه إملاء شروطه وفق ما يخدم مصلحة روما وهو ما تم فعلاً.



وعلى هذا الأساس تمكن سكيبيون من إملاء شروط قاسية على قرطاجة والتي ذكرها تيتوس ليفيوس مفصلة وهي:²⁴

□ تلتزم الدولة القرطاجية بتحرير جميع الأسرى الرومان فضلا عن إعادة الفارين والعبيد.

□ الانسحاب التام من إيطاليا وغاليا والتخلي نهائيا عن اسبانيا.

□ ضمان استقلال قرطاجة والحفاظ على ممتلكاتها في إفريقيا فقط.

□ تتخلى قرطاجة عن أسطولها البحري وتسلم جميع سفنها لروما والسماح لها الاحتفاظ بعشرة سفن فقط.

□ تسلم قرطاجة كل ما تملكه من أفيال المعدة للحرب وأن لا تقوم مستقبلا بترويض أخرى للحرب.

□ يمنع على قرطاجة إثارة أي حرب داخل الأراضي الإفريقية وخارجها إلا بعد حصولها على إذن من روما.

□ تدفع قرطاجة أجور جنود روما وكذا تموينهم بالمتونة وهذا طوال الفترة السابقة لتوقيع المعاهدة.

□ تدفع قرطاجة غرامة مالية قدرها مائتي وزنة أوبية كل عام طوال خمسون عام، وهو ما يعادل إجمالا عشرة آلاف وزنة أوبية من الفضة.

□ يسمح لماسينيسا باسترجاع جل الأراضي التي كانت بحوزته قبل الحرب فضلا عن أراضي أبائه وأجداده.

□ لضمان التزام قرطاجة ببند المعاهدة تقوم بتسليم مائة شاب شريطة أن لا يتجاوز سنهم الأربعين روما.

يشير (يان لوبواك) إلى أن هذه الشروط زرعت بذور الحقد منذرة بقيام حرب أخرى بين الطرفين فبالرغم من أن إفريقيا بقيت في أيدي القرطاجيين إلا أن وسائل الدفاع انتزعت منها بإحراق روما لخمسمائة من سفنها²⁵، ولاستكمال عقد الصلح والتوقيع على المعاهدة من الجانب الروماني تم استفتاء الشعب الذي وافق عليها وكلف قائد الحرب سكيبيون على توقيعها وفق الشروط المفروضة سالفاً²⁶.

وعن بداية تطبيق بنود المعاهدة المخزية يذكر المؤرخ ستيبان قزال أن قرطاجة قامت بتسليم أغلب سفنها الحربية وفيلتها كما أطلقت سراح جميع الأسرى الرومان بما فيهم عضو



مجلس الشيوخ كنتوس ترنتيوس كوليو (Quentus Terentius Culleo)، وعلى إثر ذلك غادر سكيبيون إفريقيا عام 201 ق.م متجها إلى روما التي وصلها باستقبال شعبي كبير وأطلق عليه لقب الإفريقي نظرا لتحقيقه الانتصار بالأراضي الإفريقية²⁷.

يتبين بعد استعراض بنود المعاهدة مدى الحقد الذي تكنه روما لغريمها قرطاجة والعمل على إضعافها اقتصاديا وعسكريا بحرمانها من مصادر قوتها العسكرية خاصة تحطيم سفنها البحرية وبالتالي إضعاف تجارتها في المتوسط التي طالما كانت مصدر الهيمنة والقوة، كما أن منعها من إعلان الحروب دون إذن روما وفتح المجال لماسينيسا بالتوسع على حسابها لدليل على خبث الرومان الرامي إلى إقحامها في الحرب أولا وإضعاف الجانبين ثانيا ثم الإغارة على قرطاجة بدافع إخلالها وخرقها لبنود المعاهدة وكأنما الرومان خططوا لأحداث النصف الأول للقرن الثاني ق.م نظرا لتسلسل الأحداث والتي كانت في مصلحة روما لا غير.

3- تعيين حنبعل في منصب سفت²⁸ (Sufete) ومحاولة القيام بإصلاحات:

عمد حنبعل المدعم من طرف الشعب بعد هزيمة زاما وتوقيع المعاهدة المخزية إلى تغيير الأوضاع وانتهاج منهج جديد في التسيير، فبعد انتخابه كسفت عام 196 ق.م حرص على تطبيق جملة من الإصلاحات الداخلية والقيام بعملية تطهير واسعة في الجهاز السياسي والإداري²⁹، ويعتبر (يان لوبواك) استنادا إلى العديد من المؤرخين أن سياسة حنبعل الإصلاحية ما هي إلا مواصلة لسياسته الثورية كما رغبة منه في إرساء الديمقراطية³⁰.

الشكل رقم 01 : تمثال نصفي لحنبعل برقعة *



المرجع:

S. Alexander gentry ; Hannibal 's strategies (during the second Carthaginian war with rome and his ultimate goal of Roman subjugation) , new cote university library, 2002 , p 1

قام حنبعل بتغييرات جذرية في مجلس القضاة (مجلس الأربعمئة)، فبعدما كان أعضاؤه يعينون لمدى الحياة ونظرا لفساد هذا المجلس، قرر تغيير صيغة التعيين أين أصبح الأعضاء يعينون عن طريق الانتخاب ولمدة عام واحد فقط، عمل على تخفيف حجم الضرائب المفروضة على الشعب³¹. وقد خلقت هذه الإصلاحات سخط كبير في أوساط الطبقة الأرستقراطية التي رأت أن حنبعل بهذا العمل يقلل من نفوذهم وغناهم وما زاد من سخطهم إقدامه على إقرار قانون جديد يهدف إلى تقديم حصيلة وتقارير الخزينة العامة للقضاء على عمليات الاختلاس للمال العام وتعويضه بفرض الضرائب على عامة الشعب³².

هذه الإصلاحات تبين لنا حرص حنبعل على الدفاع عل الطبقة المحرومة المتمثلة في الشعب المغلوب عن أمره، لكن في جانب آخر تتولد الرغبة في الانتقام منه من طرف الطبقة الأرستقراطية التي ستعمل على التخلص منه باللجوء والاستعانة بالعدو.



راسلت الطبقة الأرستقراطية الرومان وقدموا شكوى باطلّة ضد حنبعل مفادها قيام هذا الأخير بعقد تحالف مع أنطيوخوس للإغارة على الرومان وهو ما يتنافى مع بنود معاهدة زاما، فسارعت روما إلى تشكيل وفد يتقدمهم ترنتيوس أوكلت له مهمة التحقيق في الصراع بين حنبعل والأرستقراطيين في قرطاجة، إلا أن حنبعل تفتن للمؤامرة الهادفة للقبض عليه فغادر الوطن الأم عام 195 ق.م سرا ولجأ إلى الملك أنطيوخوس الثالث في سوريا³³، وحاول تحفيز هذا الأخير على إعلان الحرب ضد روما وتم له ذلك إلا أنه مني بالهزيمة فغادر حنبعل متجها صوب جزيرة كريت³⁴، ومن هذه الأخيرة لجأ إلى بيثينا عند صديقه (بروسياس) والتي قضى بها بقية حياته التي ختمها بتجرع السم لما علم بترصد الرومان للقبض عليه حيا وذلك عام 183 ق.م، مما يوضح لنا مدى الرعب الذي أسكنه في قلوب الرومان ولم يهدأ لهم بال حتى وفاته.

4- الصراع مع ملك نوميديا الموحدة:

نصت معاهدة زاما على أحقية ماسينيسا باسترجاع أراضيها داخل حدود قرطاجة، فوضعت هذه الأخيرة عمليا تحت رحمة جارتها النوميديّة القويّة، وهو ما يحمل في طياته بذرة النزاع الذي سيعجل بتدمير قرطاج³⁵، فبعد نهاية الحرب يعترف بماسينيسا كملك لنوميديا الموسعة ووفق نفس المعاهدة أرغمت قرطاجة على إعادة لماسينيسا الأراضي وكل المدن التي كانت لأجداده³⁶، وحسب تيتوس ليفيوس فقد شرع الملك النوميدي بالتوسع نظرا للشقاق بين مجلس الشيوخ والشعب في قرطاج خاصة مع فقدان الثقة بينهما للسيطرة على الأراضي القرطاجية³⁷، وهدفه في التوسع بناء دولة نوميديّة موحدة ومتراصة الأطراف وذلك بالقضاء على النمط القبلي الذي كان سائدا من قبل، وكان توسعه تدريجيا فقطعة بعد قطعة كان ماسينيسا يضعف من القوة القرطاجية كما كان يستعمل الخطاب الدعائي بدعوى تحريره للسكان من السيطرة الأجنبية³⁸.

تمكن الملك النوميدي ماسينيسا خلال حوالي نصف قرن (201-150 ق.م) من ضم أراضي واسعة شرقا وغربا، مشكلا نواة مملكة محلية موحدة وفق البرنامج المسطر مسبقا وأصبحت أقوى ممالك الحوض الغربي للمتوسط³⁹، وأمام هذه التوسعات كانت قرطاجة تكتفي بإيداع الشكاوى لدى مجلس الشيوخ الروماني ضد ماسينيا ولكن هذا المجلس لم يحرك ساكنا ضد هذا الأخير.

إن السبب المباشر الذي أدى إلى الحرب بين قرطاجة وماسينيسا هو الاعتداء الذي تعرض له ابني ماسينيسا (مكيبسا وغلوسة) من طرف كارتالون



البوطريقي(CarthalonBoetharque) وذلك خلال قيادتهما لبعثة نحو قرطاجة للاحتجاج على طرد أنصار الحزب المساند لماسينيسا⁴⁰، فرد ماسينيسا بالهجوم على مدينة أوريوسكوب ومحاصرتها فردت قرطاجة بالدفاع عن طريق جمع قوة عسكرية تتألف من 25000 مشاة و400 فارس واختار مجلس الشيوخ القائد هسدروبل لقيادة هذه الحرب⁴¹، فتبدأ بذلك الحرب بين الطرفين والتي دامت بين عامي 152-150 ق.م.

انتهت هذه الحرب بانتصار ماسينيسا وتم عقد معاهدة سلم وفق الشروط التي طرحها هذا الأخير والمتثلة فيما يلي من بنود⁴²:

- على القرطاجيين إعادة كل الفارين من جيش ماسينيسا.
- يدفع القرطاجيون خلال مدة خمسين سنة 5000 تالون من الفضة.
- السماح بعودة المنفيين من الحزب المناصر لماسينيسا إلى وطنهم.
- خروج جميع الجنود القرطاجيين المحاصرين في مخيمهم الواحد تلو الآخر بدون سلاح ويمرون على جيش ماسينيسا.

5- الحرب الرومانية-القرطاجية الثالثة ونهاية قرطاجة

أجمعت جل المصادر على أن قرطاجة هي سبب هذه الحرب فيذكر فلوريس(Florus) أن قيام هذه الحرب تسببت فيها تصرفات قرطاجة والتي طعن في أحد بنود بنود معاهدة زاما المتمثل في عدم الحصول على إذن من روما لإعلان الحرب في إفريقيا، فصمودها ضد النوميديين وخوضهم للحرب ضد نوميديا هو خرق للسلام والمعاهدة مما أرغم روما على إعلان الحرب الثالثة ضدها عام 149 ق.م⁴³، ولكن يبقى هذا السبب غير مقنع بتظافر أسباب أخرى غير مباشرة منها طمع روما في خيرات قرطاجة خاصة وأن هذه الأخيرة استعادت عافيتها بعد الحرب وشهدت ازدهار زراعي وتمكنت بعد وقت قصير من جمع ثروة كبيرة⁴⁴، وهو ما دفع ماركوس بوركيوس كاتون (Marcus Porcius Caton) لدى عودته من الأراضي الإفريقية خلال فترة النزاع بين ماسينيسا وقرطاجة ولاحظ خلالها نمو وازدهار قرطاجة، ومن تلك اللحظة أصبح يردد دوما في جلسات مجلس الشيوخ بوجوب تدمير قرطاجة⁴⁵، وكان هذا الأخير في سن الثمانين من عمره لما كان يردد هذا الطرح (delanda est Carthago)⁴⁶، ورغم وجود معارضة شديدة داخل مجلس الشيوخ على مشروعه وعلى رأسهم بوبليوس كورنيليوس سكيبون نازيكا (P.C.S. Nasica) الذي كان يرد على كاتون بأن قرطاجة يجب أن تبقى موجودة⁴⁷، ولكن طرح كاتون جسد بعد سنوات قليلة على أرض الواقع.



ويطلعنا شارل أندري جولييان عن سبب هام جدا مفاده خوف الرومان من تنامي قوة الملك النوميدي ماسينيسا وتمكنه خلال فترة وجيزة من توسيع مملكته وتقويض الأراضي القرطاجية، وهو ما دفع الرومان إلى التدخل العاجل لوقف مشروعه الهادف إلى جعل قرطاجة عاصمة للمملكة المترامية الأطراف وبالتالي يصبح منافس للرومان في الحوض الغربي للمتوسط⁴⁸.

ومهما اختلفت الأسباب فإن هدف الرومان الأساسي كان واضحا منذ نهاية الحرب الثانية خاصة وهو الإبقاء على قرطاجة ضعيفة اقتصاديا وعسكريا، ومع محاولات قرطاجة بناء قوتها كان لها الرومان بالمرصاد وما زاد من خبت الرومان عدم تدخلهم خلال الحرب القرطاجية ضد ماسينيسا بهدف إضعافهما وتسهيل مهمة الإغارة على قرطاجة أولا في انتظار دور نوميديا لاحقا.

تحركت الحملة الرومانية مع بداية عام 149 ق.م باتجاه الأراضي الإفريقية بقوة إجمالية بلغت ثمانون ألف مشاة وأربعة آلاف فارس، ولما وصلت السفن الحربية أرسى بمينا ليبي⁴⁹، وتم تكليف القنصل ماركوس مانيليوس لقيادة الجيوش البرية والقنصل لوكيوس ماركيوس كونسورينوس لقيادة الجيوش البحرية⁵⁰، ويذكر ديودور الصقلي أن القرطاجيين شكلوا وفدا بمجرد بلوغ خبر الإنزال الروماني أرسل إلى القنصل لطلب السلم وفق الشروط التي يملها لهم⁵¹، ولعل أهم هذه الشروط التي وافقت عليها قرطاجة هو تسليم سلاحها المقدر بمائتي ألف قطعة سلاح من جميع الأنواع إضافة إلى ألقي منجنيق إلى المخيم الروماني دون تردد، وهو ما أفرح الرومان وزاد من عزيمتهم لتهديم قرطاجة بطريقة سهلة وغير مكلفة⁵².

وهكذا تم تحطيم قرطاجة عسكريا ثم نفسيا للتحضير لفرض الحصار مما يتبين لنا سذاجة مجلس الشيوخ القرطاجي ممثلا في الطبقة الأوليغارشية التي لم يكن همها إلا الحفاظ على مصالحها المادية على حساب المصلحة العامة، فلو رفضت شرط تسليم السلاح لأمكنها إطالة فترة الدفاع وبالتالي إرهاق العدو وإجباره على الانسحاب ولكن بهذا التصرف قدمت المدينة على طبق من ذهب رغم طول فترة الحصار التي قاربت ثلاث سنوات.

وأخيرا كان على القرطاجيين أن يختاروا بين التخلي على مدينتهم وبناء أخرى على بعد خمسة عشر كيلومتر وهو الشرط الأخير للرومان، أو مواجهة الحرب رغم الضعف العسكري، وفي الأخير قرروا الدفاع عن مدينتهم إلى آخر قطرة دم تسري في عروقهم وهكذا اندلعت الحرب الرومانية-القرطاجية الثالثة عام 149 ق.م واستمرت إلى غاية 146 ق.م⁵³.



سارع مجلس الشيوخ إلى محاولة إعادة تجميع قوة قرطاجة وتجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال أين وصل الأمر إلى تحرير العبيد وتسخيرهم في الخدمة العسكرية والدفاع عن المدينة المحاصرة⁵⁴، ولعل أهم مظهر بطولي يُروى من داخل المدينة للدفاع عنها هو مضاعفة الجهود لإعادة التسليح وبناء قوة جديدة رغم تسليم معظم أسلحتهم للرومان، والغريب في كل ذلك إقدام النسوة على قطع شعورهن وتقديمها لغرض استخدامها كحبال لبعض الآلات والأسلحة كما حولت المنازل والدكاكين إلى ورشات لصناعة الأسلحة⁵⁵.

وهكذا تمكن القرطاجيون بفضل هذه التعزيزات من الصمود في وجه قناصل عامي 149 و 148 ق.م وألحقوا بالجيوش الرومانية خسائر مادية وبشرية فادحة، وهو الأمر الذي أرغم مجلس الشيوخ على تعيين سكيبيون الإيميلي قنصلا رغم صغر سنه الذي لا يسمح له بذلك إلا أن ضغط الشعب أوصله للقنصلية وكلف بمهم تهديم قرطاجة نظرا لحنكته وتكتيكاته العسكرية⁵⁶. وتجدر الإشارة إلى أن ماسينييسا كان رافضا للتدخل الروماني في شمال إفريقيا ولم يقدم لهم الدعم وتوفي عام 148 ق.م دون أن يشهد سقوط قرطاجة في أيدي الرومان، ويتبين لنا الخطأ الإستراتيجي لكل من قرطاجة أولا ثم ماسينييسا المتمثل في عدم تحالفهما وعداء كل منهما للآخر ليستغل الرومان ذلك لصالحهما في إطار ما يعرف بسياسة فرق تسد التي كلفت منطقة شمال إفريقيا غالبا.

نزل سكيبيون إذن بإفريقيا خلال ربيع عام 147 ق.م بقوات عسكرية إضافية مشكلة من المجندين والحلفاء، ولم يدخل في الحرب مباشرة لكنه باشر في إعادة النظام وسط الجيش الذي فقد مع سابقه وهي نقطة قوة سكيبيون والقوة الضاربة في الجيش الروماني⁵⁷، وشرع بعدها في فرض حصار شامل على مدينة قرطاجة بغلق جميع المنافذ والطرق المؤدية إليها كما منع عنها المونة لغرض تجويع سكانها ودفعهم على الاستسلام⁵⁸.

اخترق الرومان بوابات المدينة بعد مقاومة بطولية للقرطاجيين فكانت المواجهة بين الطرفين وجها لوجه فاستمرت المعارك طول مدة ستة أيام⁵⁹، فدارت معارك دامية في شوارع المدينة المكتظة بالبنائيات ذات الست طوابق فلم يخلو أي بيت من القتال سواء داخلها أو أعلاها، حتى أشعل الرومان فيها النيران فأضحت الجثث تتناثر من أعلى الشرفات فاستخدمها الجنود الرومان لملء الخنادق للمرور عبرها إلى مختلف الجهات، وبقي اخر المقاومين محصنين في قلعة بيرصة التي خرج منها في اليوم السابع خمسون ألف شخص من الرجال والنساء والأطفال مسلمين أمرهم للقنصل سكيبيون نظرا لشدة الجوع والأوبئة⁶⁰، فكان مصيرهم



مؤسف حيث قام الرومان ببيعهم كعبيد في أسواق النخاسة وفي نفس الوقت استمر الجنود في حرق المدينة⁶¹، وكان آخر من استسلم لهم القائد القرطاجي هسدروبعل الذي طلب الرحمة من سكيبيون، بينما من كان لاجئاً معه في معبد أشمون بما فيهم زوجته وأولاده رفضوا الاستسلام ملقين اللعنة على القائد نظير خيانتته ثم أضرموا النيران وألقوا بأنفسهم فيها⁶² فكانت آخر نفس لمدينة ديدون أو عليسة لتنفق شمعها التي بقيت مشعة طوال تسعة قرون. استمرت النيران مشتعلة في المدينة لمدة عشرة أيام كاملة فكانت المهمة شاقة للجنود الرومانيين الذين هموا بالنهب بدل قتال هؤلاء الشرفاء المدافعين عن مدينتهم، فرغم أنهم سلموا كل أسلحتهم إلا أنهم أعادوا تسليح أنفسهم حتى أن سكيبيون طالبت مهمة تحطيمه لمدينتهم طوال عام كامل فلولا المجاعة التي افتكت بالمحاصرين لما تمكن منها ومن سكانها، ومازاد من جبنه إعطاء الأوامر لجنوده بنهب المدينة خاصة المعادن الثمينة من ذهب وفضة وغيرها⁶³، حيث يذكر كريستوف بورجيون أن سكيبيون جهز أربعة آلاف رجل لغرض النهب وأمرهم بالدخول إلى قلب المدينة ومهاجمة معبد أبولون فاستخدموا سيوفهم لنزع الصفائح الذهبية من جدران المعبد ومن تمثال إله الشمس الذي بلغت قيمته أكثر من ألف تالون⁶⁴.

إن وصف (قزال Gsell) لهمجية الرومان وقائدهم لخبر دليل على بربرية الرومان واعتداءاتهم على حضارات الشعوب، كيف لا وقد ساهموا في اندثار وفقدان حلقات هامة من تاريخ شمال إفريقيا عامة وقرطاجة خاصة، لذا تسقط أطروحة أنصار المدرسة الكولونيالية التي لطالما حاولت تمجيد الاستعمار الروماني بالمنطقة بداعي أنه ساهم في نشر الحضارة.

ماتت قرطاجة إذن في ربيع 146 ق.م تحت هول النيران الرومانية، ويذكر فرونسوا ديكره اعتماداً على بوليبيوس أن سكيبيون أمام هذا المشهد المحزن تمنى ألا يأتي اليوم الذي يرى فيه موطنه روما يلقي نفس المصير الذي لاقته قرطاجة وأنشد قائلاً: « سيأتي يوم تهلك فيه إيليون المقدسة - ومعها بريام وشعب بريام برؤوس الحراب»⁶⁵، كما أنه لم يتمالك نفسه وبكى نظراً لرؤيته تحطم هذه المدينة المجيدة والعريقة⁶⁶، مما يبين مدى العمل الوحشي الذي ارتكبه الجنود الرومان بأمر من مجلس شيوخ بلدهم.

6- تأسيس الرومان لمقاطعة إفريقيا القديمة:

لما علمت قرطاجة بالمصير الذي لاقته قرطاجة وانتصار القنصل سكيبيون تنفست الصعداء وأعطيت الأوامر بتنظيم احتفالات كبرى بهذه المناسبة في كل أنحاء البلاد⁶⁷، في نفس الوقت سارع مجلس الشيوخ إلى تعيين وفد بإيعاز من الشعب يتكون من عشرة أعضاء كلفوا

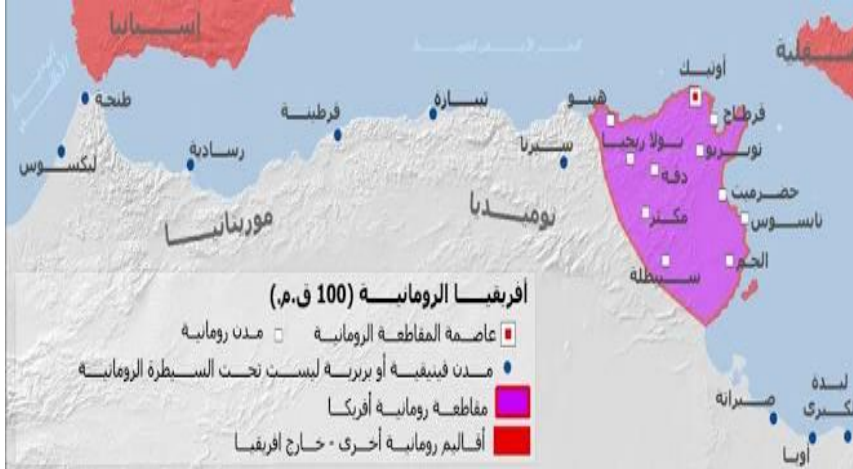


بالذهاب إلى إفريقيا للتباحث مع القائد المنتصر مصير أراضي قرطاجة في هذا الظرف الراهن، وتقرر بداية إتمام تحطيم وتهديم ما تبقى من المدينة ثم تحديد الأراضي التي تملكها قرطاجة في بداية هذه الحرب بدقة كبيرة⁶⁸، وكان هذا العمل إيذانا ببداية للتغلغل الروماني في بلاد المغرب القديم واعتبار أراضي قرطاجة أرضا رومانية ملك للشعب الروماني⁶⁹، أما المدن السبعة التي ساعدت الرومان وتحالفت معها لتحطيم قرطاجة وهي (أوتيكا، هدروماتوم، لبتيس، تابسوس، أشولا، توداليس، إنشيل) فقد أعلنت من قبل روما أنها مدن حرة وتحصلت على قسم من الأراضي المحتلة⁷⁰. وهذا يتبين لنا أن الرومان ما كانوا ليتمكنوا من تحطيم قرطاجة لولا خيانة أبناء الوطن على غرار مدينة أوتيكا فبفعلتها هاته، وبالرغم من إعلانها مدن حرة إلا أن مصيرها سيكون أقسى من مصير قرطاجة لتلتهم أراضيها ولو بعد حين.

شرع الرومان في إعادة بناء قرطاجة في أول محاولة عام 122 ق.م أي بعد أربعة وعشرون عاما من تدميرها ، ولقد قام بهذا العمل كايوس غراكوس (Caius Gracchus) لبناء مستعمرة رومانية على أنقاض المدينة المحطمة، وظهرت المحاولة الثانية خلال عهد يوليوس قيصر (Julius César) تحت اسم مستعمرة يوليا كارتاجو (Julia Carthago Colonia)، ليزودها فيما بعد أكتافيوس أغسطس بالمعمرين لغرض ترسيمها⁷¹.

كانت مساحة هذه المقاطعة (أنظر الخريطة رقم 02) صغيرة جدا وهذا نظرا لتوسعات ماسينيسا السابقة التي قوضت مساحتها ، وتتجه حدود هذه المقاطعة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ثم من الغرب إلى الشرق وأخيرا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، فهي تمتد إذن من مصب وادي توسكا (الوادي الكبير) بالقرب من طبرقة وتمر بالقرب من باجة (Vaga) ودوقة (Thuga)، ثم تمر عبر جنوب جبل زغوان لتنتهي عند مدخل سدرة الصغرى (خليج قابس)، ويعتبر الخندق الذي أمر سكيبيون بحفره الحد الفاصل بينها وبين مملكة نوميديا، ويطلق على هذا الحد الاصطناعي الحفير أو الخندق الملكي (Fossa Regia) وتقدر مساحة هذا المقاطعة بحوالي عشرين ألف كيلومتر مربع⁷²، بينما يطر بورجيون أن المقاطعة الإفريقية كانت تقدر بخمسة وعشرون ألف كيلومتر مربع وكانت تمثل ثلث الشمال الشرقي لتونس الحالية⁷³.

خريطة رقم 02: توضح المقاطعة الإفريقية المشكلة من الأراضي القرطاجية
بعد 146 ق.م



المراجع: الأطلس التاريخي للبحر المتوسط explorethemed.com

عموما فقد أصبحت هذه المقاطعة الجديدة أهم المقاطعات الرومانية، وشهدت تطورا اقتصاديا كبيرا خاصة خلال القرن الثاني بعد الميلاد نظرا لما تزخر به من إمكانيات، ونالت بذلك شهرة كبيرة في الحوض الغربي للمتوسط ويظهر ذلك من خلال المباني التي تعود إلى هذه الفترة كحمامات أنطونيوني وغيرها من المنشآت الضخمة⁷⁴. ونشير في هذا الصدد إلى أن هذا الوجه المشرق الذي عرفته قرطاجة الرومانية لم يكن موجها لفائدة الأهالي بل هو موجه لغرض إيجاد أرضية مشابهة لما هي عليه مدن روما قصد استقطاب المعمرين من إيطاليا لتعمير المقاطعة والاستيلاء على أراضيها حتى أصبحت فيما بلاد المغرب القديم مطمورة روما للقمح.

وفي ختام هذا العمل يمكننا ان نلخص إلى عدة نتائج و خلاصات تاريخية أهمها أن روما اهتمت قرطاجة على أنها هي من تسببت في قيام الحرب الثانية بينهما كما حاول مؤرخها تسمية هذه الحروب بالحرب البونية، ولكن الواقع غير ذلك فلقد كشفت لنا الدراسة أن روما اجتهدت كثيرا في اندلاع هذه الحرب، لهذا فيمكن أن نقول أن التسمية الحقيقية للحرب هي الحرب الرومانية-القرطاجية.



إن هزيمة قرطاجة في هذه الحرب كانت نتيجة لأخطائها الإستراتيجية خاصة تجاهلها لمشروع حنبعل وتأخير الإمداد وإن لم نقل غياب تام لذلك مما أدى إلى تراجع حنبعل بعد معركة كاناي 216 ق.م. تعد معاهدة زاما المخزية التي فرضت على قرطاجة وقبولها السهل من طرف مجلس الشيوخ القرطاجي ممثلا في الطبقة الأرستقراطية التي كانت تهدف إلى الحفاظ على مصالحها، هي في الحقيقة البداية الحقيقية لنهاية قرطاجة ولدورها في الحوض المتوسط. لقد كان إعلان قرطاجة الحرب ضد ماسينيسا رغم أنها لم تكن مستعدة جيدا والذي اعتبرته روما خرقا لبند من بنود زاما فأعلنت ضدها الحرب، يعد بمثابة انتحار حقيقي لقرطاجة، وتسريع فنائها رغم استبسال سكانها ومقاومتهم الشرسة. وأخيرا فإن تحطيم قرطاجة عام 146 ق.م. وتحويل أراضيها إلى مقاطعة رومانية كانت بداية لتغلغل الرومان في بلاد المغرب القديم ، حيث انتهجت روما بعد ذلك نهجا يقوم على القضم والضم، فبعد قرنين أي عام 40 م تمكنت روما من السيطرة الكاملة على المنطقة ولمدة خمس قرون.

الهوامش:

¹ تعرف مدينة ساغونته (Saguntum) حاليا باسم مورفيدو (Murviedo) التي تقع شمال نهر سكر (SUCRO) وجنوب نهر الإيبيرو (Ébre). للمزيد أنظر: بسام العسلي، هانيبال القرطاجي 247-183 ق.م، بيروت، ص 62.

² إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الروماني، ط1، الشركة العالمية للكتاب، لبنان 1996، ص 125.

³ محمد الصغير غانم، المقاومة والتاريخ العسكري المغاربي القديم، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، ص ص 150، 151.

⁴ معاهدة الإيبيرو هي المعاهدة التي وقعت بين روما ممثلة في الوفد الذي أرسلته إلى اسبانيا وقرطاجة ممثلة في هسدروبيل قائد الجيش في اسبانيا، تم المصادقة عليها عام 226 ق.م. تنص على وضع الحد الفاصل بين توسعتهما باسبانيا فكان نهر الإيبيرو الحد الطبيعي بينهما، فأراضي روما شمال النهر وأراضي قرطاجة جنوب النهر وعليه فمدينة ساغونته جنوب النهر فهي ضمن الأراضي القرطاجية. (أنظر: Picard (G.C), La vie quotidienne a Carthage au temps d'Hannibal III siecle av. j-c Paris 1958, p 208).

⁵ محمد الهادي حارش، حملة حنبعل على إيطاليا ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 06، الجزائر 1992، ص 51.

⁶ محمد الهادي حارش، دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر 2013، ص 44.



- ⁷Polybe, Histoire, III, 2, 56, trad. Rousset (D), Paris 1970.
- ⁸Polybe, III, 3, 90.
- ⁹Le Bohec (Y), Histoire militaire des guerres puniques 246-146 av. j.-c, éd. Tallendier, Paris 2014, p 173.
- ¹⁰ Polybe, III, 2, 74.
- ¹¹ Polybe, III, 3, 107.
- ¹²Decret(F), Carthage au l'empire de la mer, éd. Seuil, Paris 1977, p190
- ¹³ Le Bohec(Y), op. cit. p193.
- ¹⁴Gsell(ST), H.A.A.N, tome3, Paris 1921, p142.
- ¹⁵ بوليوس كورنيليوس سكيبون(235-183ق.م: لقب بسكيبون وهو اسم الشهرة لعائلة في روما القديمة ، فكان من أبرز أفرادها والذي أطلق عليه لقب سكيبون الإفريقي لاحقا عرف بكفاءته القيادية العالية نظرا لانتصاراته العسكرية خلال الحرب الثانية ضد قرطاجة، ورغم انجازاته اتهم من طرف أعدائه ونفي الى الكابيتول حيث مات وأوصى بكتابة الكلمات التالية على قبره "أيها الوطن العاق انك لا تستحق رفاثي". أنظر: بسام العسلي، المرجع السابق، ص84.
- ¹⁶ يعي لطفي(ع.إ)، تاريخ اليونان والرومان، بيروت 2006، ص267.
- ¹⁷ خزعل الماجدي، المعتقدات الكنعانية، ط1، دارالشرق للنشر والتوزيع، رام الله 2001، ص54.
- ¹⁸ محمد الصغير غانم، المملكة النوميديّة والحضارة البونية، ط1، شركة دار الأمانة لطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1998، ص 81.
- ¹⁹ Marcel Le Gly, Histoire Romaine, éd. P.U.F, Paris 2008.
- ²⁰ محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ط1، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركائه، مصر 1964، ص 169.
- ²¹Tite-Live, Histoire Romaine, XXX, 30, 37, trad. D de Celerq, Paris 2001.
- ²² اصطيغان اكصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ج3، تر. محمد التازي سعود، مطبوعات الأكاديمية المغربية، الرباط 2007، ص 239.
- ²³Tite-Live, XXX, 30, 37.
- ²⁴Tite- Live, XXX, 37.
- ²⁵Le Bohec (Y), op. cit, p 253.
- ²⁶Tite-Live, XXX, 30, 7.
- ²⁷ اصطيغان اكصيل، المرجع السابق، ص ص 245-246.
- ²⁸ السفط هو نظام سياسي قرطاجي يتمثل في تعيين كل عام لسفطين أو قاضيين وهو ما يعادل القنصلان عند الرومان، وهذا منذ القرن الثالث ق.م والذي ظل قائما في شمال إفريقيا حتى بعد قرن من سقوط قرطاجة، وكنا لهما دور كبير يتمثل في اقتراح وفرض القوانين فضلا عن تقييد نفوذ الطبقة الأرستقراطية هذا في حالة



- السلم، أما في حالة الحرب أضيفت مهمة أخرى للسفطين وهي قيادة الجيوش . (أنظر: محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1990، ص 198.
- ²⁹Decret (F), Carthage au l'empire de la mer, éd. Seuil, Paris 1977, p 218.
- ³⁰Le Bohec (Y), op, cit, p 218.
- ³¹Decret (F), op. cit, p 219.
- ³²Lancel (S), Hannibal, éd. Cérès, Paris 1995, p 292.
- ³³Tite-Live, XXXIII, 47, 7.
- ³⁴بسام العسلي، المرجع السابق، ص 102.
- ³⁵فرنسوا ديكرية، قرطاجة الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب الشام، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1994، ص 124.
- ³⁶Christophe Burgeon, la troisième guerre punique et la destruction de Carthage – le verbe de Caton et les armes de Scipion-, éd. Academia, France 20015, p 34.
- ³⁷Tite-Live, XXXIV, 62
- ³⁸Christophe Burgeon, op. cit, pp 34-35.
- ³⁹غابريال كامبس، ماسينييسا أو بدايات التاريخ، تعريب العربي عقون، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2009، ص 234.
- ⁴⁰Christophe Burgeon, op. cit, p45
- ⁴¹Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale (berbère) depuis les temps les plus recules j'usqua la conquête française 1830, T1, p49
- ⁴²Appien, Appien, livre Carthaginois, LXXIII, 335, , trad. Paul Goukowsk, éd. Les Belle Lettres, Prais 2002.
- ⁴³Florus, Troisième Guerre Punique, XIV, trad. Nisard(M), éd. Garnier, Paris 1865.
- ⁴⁴Christophe Burgeon, op. cit, pp 63-64
- ⁴⁵Ibid, p 52.
- ⁴⁶فرونسوا ديكرية، قرطاجة أو إمبراطورية البحر، تر. عزالدين أحمد عزو، ط7، الأهالي للنشر والتوزيع، دمشق 1996، ص 218.
- ⁴⁷اصطيفان اكصيل، المرجع السابق، ص 273.
- ⁴⁸شارل أندري جوليان، ماسينييسا أو بدايات التاريخ، تعريب العربي عقون، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر 2009، ص ص 115-116
- ⁴⁹Le Bohec (Y), op.cit., p294.
- ⁵⁰محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1995، ص 70.



- ⁵¹ Polybe, Histoire Générale, XXXVI, 3, trad. Félix bouchot(H), éd. Charpentier, Paris, 1847
- ⁵² Appien, LXXX, 376
- ⁵³ محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 283.
- ⁵⁴ Le Bohec(Y),op. cit, p 296
- ⁵⁵ محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص 283.
- ⁵⁶ محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص 71.
- ⁵⁷ Christophe Burgeon, op. cit, p111
- ⁵⁸ Le Bohec (Y), op. cit, p306
- ⁵⁹ محمد ابراهيم السعدني، حضارة الرومان منذ نشأة روما حتى نهاية القرن الأول الميلادي، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، القاهرة 1998، ص 95.
- ⁶⁰ فرونسوا ديكره، المرجع السابق، ص 220.
- ⁶¹ شارل أندري جولييان، المرجع السابق، ص 89.
- ⁶² فرونسوا ديكره، المرجع السابق، ص 221.
- ⁶³ اصطيافان اكصيل، المرجع السابق، ص 330.
- ⁶⁴ Christophe Burgeon, op. cit, p 135.
- ⁶⁵ فرانسوا ديكره، قرطاجة الحضارة والتاريخ...، ص 192.
- ⁶⁶ Christophe Burgeon, op. cit, p 139.
- ⁶⁷ نفسه، ص 193.
- ⁶⁸ اصطيافان اكصيل، المرجع السابق، ج 7، ص 7.
- ⁶⁹ شارل أندري جولييان، المرجع السابق، ص 557.
- ⁷⁰ Christophe Burgeon, op. cit, p 150.
- ⁷¹ نصيرة ساحير، قرطاجة عاصمة الثقافة اللاتينية في بلاد المغرب خلال العهد الإمبراطوري الروماني 27 ق.م – 429 م، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، العدد 24، الجزائر 2013، ص ص 258، 259.
- ⁷² اصطيافان اكصيل، المرجع السابق، ص 12.
- ⁷³ Christophe Burgeon, op. cit, p 151
- ⁷⁴ نصيرة ساحير، المرجع السابق، ص 259.